الباب الرابع

الإسلام ووسائل الإعلام

إن الإعلام بما فيه من وسائل يمكن أن توجه إلى نفع الإنسان، ويمكن أن توجه إلى ضرر الإنسان، ذلك أن وسائل الإعلام جميعها سلاح ذو حدين يمكن توجيهها لنفع أو ضرر للإنسان ولذلك نجد أن الإسلام وضع قواعد أساسية لتوجيه هذه الوسائل بما يساعد الإنسان على الترقي فى مستواه الفكري والمعرفي .

فالإعلام بوسائله المختلفة واجهة حضارية للدولة، والدولة العاقلة لا تترك مثل هذا السلاح (الذو حدين) إلا واستغلته الاستغلال الذي يوضح فكرها وسياساتها للعالم أجمع .

لذلك سوف نتحدث – إن شاء الله – عن هذه الوسائل جميعها فى ثوبها الإسلامي .

الفصل الأول

الصحافة

إن الصحافة الإسلامية لها دور جليل فى خدمة الإسلام وتوعية المسلمين بحقائق دينهم فهي تصحح الخطأ وتقوّم المعوج وترشد إلى الطريق الصحيح وتكشف الفساد وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدل على الخير وتدعو إلى الحق وتنشر أحكام الإسلام وتحافظ على اللغة العربية فى بلادها..

فالصحافة أداة ووسيلة تستخدم فى الخير وتستخدم فى الشر فهي سلاح ذو حدين كالسيف والسكين والقنبلة والطائرة والنار، هذه الوسائل قد تكون خيراً وبركةً وقد تكون شراً ونقمة، وذلك يتوقف على كيفية استخدامها والهدف من استخدامها فالسكين يستخدم فى ذبح الحيوان ليأكله الإنسان ويتغذى من لحمه كما يستخدم فى طعن إنسان وقتله – والقنبلة تستخدم فى تمهيد طريق أو شق نفق أو إزالة جبل كما تستخدم فى قتل الإنسان أو إبادة مدينة بسكانها .

كذلك الصحافة تستخدم الخير فى خدمة الإسلام والمسلمين وتستخدم للشر في إفساد المسلمين وإبعادهم عن الإسلام .

فهي وسيلة مباحة وهامة ونافعة إذا استخدمت لصالح الإسلام، وهى وسيلة محرمة إذا استخدمت ضد الإسلام والمسلمين بطريقة لا يرضي عنها الإسلام مثلها فى ذلك كمثل الشعر فمنه الحسن ومنه القبيح .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الشعر بمنزلته الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام " [411] فالصحيفة والمجلة من الأسلحة ذات الحدين تستخدم للخير وتستخدم للشر، تستعمل للبناء وتستعمل للهدم .

فإذا كانت على مواصفات ترضي الله عز وجل فلا يأس فى اقتنائها والاستفادة منها، وإلا فإن من يقتنيها يقع فى الحرام والإثم وهو مسئول عما فعل .

فالإسلام لا يحارب وسائل الإعلام الحديثة ومنها الصحافة ولكن يحدد استعمالها فى الخير لأن

---

411 . محمد بن إسماعيل البخاري – الأدب المفرد – القاهرة ط ٢ ص٧٩ .

الوسيلة ليس فيها عيب إنما العيب فى الإنسان الذي يستخدمها فى غير ما يرضي الله تبارك وتعالى .

وإذا كنا نقول بالصحافة الإسلامية، فإن " إسلامية الصحافة " لا تتحقق إلا بوجود المحتوى الإسلامي للوسيلة، لأنها أداة قابلة للتشكيل بأي شكل تبعاً لمضمون الرسالة ولا تكون الصحافة إسلامية إلا إذا كانت المادة المنشورة بها إسلامية فى المبادئ والأصول والأساليب والأهداف والاتجاه فلابد من إتباع الشريعة الإسلامية والبعد عن الأهواء الإنسانية عند تحرير الصحيفة الإسلامية قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [٤١٢]، قال تعالى : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ ﴾ [٤١٣] .

فالصحافة الإسلامية مطبوعات دورية تصدر فى ثوب جميل بفنون التحرير الصحفي المختلفة فى ضوء الإسلام .

الخبر الإسلامي :

وأهمية الخبر في الإسلام تعتمد على عدة أسس وتقاس بعدة أمور منها التعبير عن الاهتمامات الراقية وتحرى الصدق والتقييم الصحيح من منطلق إسلامي ومراعاة النتائج والحرص على المفيد منها وعلى ذلك يستطيع الخبر القيام بعدة وظائف نافعة منها :-

١- ترقية اهتمامات المجتمع الإسلامي وحفزه على أعمال الفضيلة والخير.

٢- المساهمة فى إرساء قواعد التقييم على أساس تكريم المخلصين ونبذ المفسدين، وقبول الأعمال الصالحة ورفض الأعمال الضارة .

٣- المساهمة فى زيادة نسبة التنمية .

٤- المساهمة فى تأصيل الثقافة الإسلامية .

٥- المساهمة فى الترغيب فى العمل الصالح والترهيب من العمل الفاسد .

٦- المساهمة فى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فالخبر الإسلامي إذن : وصف صادق أو تقرير مثبت لحادث أو الواقع وتقاس أهميته بمدى فائدته وخيره وعائده .

---

412 . سورة الجاثية ١٨ .

413 . سورة الشورى ١٥ .

صفات الصحفي المسلم :

مهنة الصحافة مهنة إنسانية عظيمة والصحفي المسلم داعية إلى الله عز وجل ومن هنا لابد أن تتوافر فيه عدة صفات تجعله يجمع الأنباء والأخبار وغيرها وينشرها فى ضوء الإسلام ومن هذه الصفات الإخلاص والصدق والصبر، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء ﴾[٤١٤]، والصحافة لابد أن تكون صحافة سائرة على طريق الأخلاق الإسلامية بعد التزامها بالعقيدة والشريعة الإسلامية فمن أعظم الأخلاق الإسلامية خلق الصدق، فالخبر والمخبر لابد أن يكونا صادقين يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[٤١٥]، وأيضا : ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[٤١٦] ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا " [٤١٧] .

فصدق الصحافة الإسلامية شيء مهم جداً، فلا بد من صدق الخبر، فالخبر أهميته فى سلامة الرسالة وثقة الناس به فالخبر الصادق واقعي لا يجور على الحقيقة .

ولذلك يرشدنا الحق تبارك وتعالى إلى التثبت من الأنباء فى قوله عز من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾[٤١٨] .

---

414 . سورة البينة آية رقم ٥ .

415 . سورة التوبة آية رقم ١١٩ .

416 . سورة محمد آية رقم ٢١ .

417 . متفق عليه .

418 . سورة الحجرات آية رقم ٦ .

الفصل الثاني

الفن في الإسلام

إن الخلاف الناشب بين فقهاء الإسلام حول إباحة أو منع الغناء والموسيقى والرسم والنحت والتصوير – وهى من أبرز الفنون الجمالية التي عرفها الإنسان فى تطوره الحضاري – خلاف قديم وشهير وهناك العديد من المأثورات، وملابساتها، وصحتها – رواية ودراية – وحول اتساق بعضها مع البعض الآخر، دارت وتدور أغلب آراء المختلفين فى هذا المقام، ولذلك فإن الوصول فى هذا الأمر إلى رأى نطمئن إليه، يقودنا إلى كلمة سواء، يدعونا إلى أن ننظر نظرة فاحصة ومقارنة ونقدية إلى هذه المأثورات وبادئ ذي بدء فنحن بإزاء :

أ– وقائع حدثت فى عصر البعثة، وفى بيت النبوة والمسجد النبوي، وبيوت الصحابة وهى مما يدخل فى" السُنة العملية " والممارسة التطبيقية للمنهج النبوي أي أنها " شواهد مادية " تعلن عن إباحة الغناء ... وتفيد أيضا – بأن اجتهادات مخالفة قد حدثت أثناء هذه التطبيقات والسُنة العملية، أراد أصحابها – وهم صحابة أجلاء – منع الغناء، لكن رسول الله أقر الغناء ونبه أصحاب هذه الاجتهادات على خطئها وخطئهم فيها ..

ب– أحد عشر مأثورا من الأحاديث تفيد منع الغناء والنهي عنه وتوعد المغنين والسامعين ...

ج– تفسير عدد من مفسري القرآن الكريم للمراد " باللهو " في الآية القرآنية :﴿ ومِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّه بِغَيْرِ عِلْمٍ ويَتَّخِذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [419] على أنه هو الغناء ... تلك هي المأثورات .. والسنة العملية .. والتفسيرات التي جاءت في الغناء والأدوات الموسيقية المصاحبة له .. والتي دار بسببها ومن حولها خلاف الفقهاء حول موقف الإسلام من حكم الغناء، وموقف المسلمين من هذا الفن .. فمن السنة العملية التي رويت في إباحة الغناء ثلاث مرويات، شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الغناء فى اثنتين منها، ولم يقف موقفه منه عند إقراره فقط، وإنما خطأ من اجتهد لمنعه .. أما المروية الثالثة فكان شهود الغناء فيها بعض الصحابة، الذين خطئوا من اجتهد لمنعه، وقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رخص فيه، فهو مباح .

---

[419] . سورة لقمان آية ٦

فعن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت :" دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث [420] فاضطجع على الفراش، وحول وجهه . فدخل أبو بكر فانتهرني، وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! فأقبل عليه رسول الله فقال :" دعهما، فلما غفل – (أي أبو بكر) – غمزتهما فخرجتا [421] .

فنحن أمام سنة عملية، أقر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الغناء، فى بيت النبوة، من فتاتين غنتا بأشعار تتحدث عن ذكريات وقائع الحرب فى التاريخ .. وعندما اعترض الصديق أبو بكر – مجتهدا فى المنع – اعترض الرسول على هذا الاجتهاد – مؤكد الإباحة – ولم يطعن أحد من علماء الجرح والتعديل فى أحد من رواة هذا الحديث ...

وعن عائشة رضي الله عنها وفى ذات الحديث تكملة تروى أحداث واقعة ثانية لسنة عملية أخرى فى هذا الموضوع .. تقول رضي الله عنها : " وكان يوم عيد، يلعب السودان – الحبشة – بالدرق [422] والحراب، فى المسجد، فإما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم وإما قال :" تشتهين تنظرين ؟ " فقلت : نعم، فأقامني وراءه، خدي على خده، يسترني بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون . فزجرهم عمر، فقال النبي : " أمناً بني أرفدة .. دونكم بني أرفدة " [423] حتى إذا مللت، قال :" حسبك ؟ " قلت : نعم، قال " فاذهبي ".

فهنا أيضا سنة عملية أقرت اللعب (التمثيل) – المصحوب بالغناء، ففي بعض الروايات أنهم كانوا يغنون شعرا يقول :

يا أيها الضيف المعرج طارقا لولا مررت بآل عبد الدار
لولا مررت بهم تريد قراهم منعوك من جهد ومن إقتار [424]

وعندما اجتهد عمر بن الخطاب في المنع، عارضه الرسول صلى الله عليه وسلم مُقراً الإباحة ومؤكدا لها ...

---

420 . بعاث حصن للأوس ويوم بعاث وقعة من وقائع الجاهلية كانت بين الأوس والخزرج انتصر فيها الأوس .

421 . رواه البخاري ومسلم وابن ماجة .– (وتحويل الرسول صلى الله عليه وسلم وجهه، هو عن رؤية المغنيات، وليس عن السماع، فأداته الأذن) .

422 . الدرقة : الترس من جلود، ليس فيه خشب ولا عقب .

423 . أي أعطاهم الأمان ضد زجر عمر بن الخطاب رضي الله عنه لهم . و(دونكم بني أرفدة) : تشجيع علي مواصلة اللعب، أي عليكم باللعب الذي أنتم فيه ..

424 . أخرج هذه الرواية الإمام أحمد عن أنس بن مالك .

أما المأثورة الثالثة : فعن عامر بن سعيد، قال :" دخلت على قرظة بن كعب، وأبي مسعود الأنصاري، فى عرس، وإذا جوار يغنين فقلت : أنتم أصحاب رسول الله، وأهل بدر، يفعل هذا عندكم ؟!.. فقالوا : إن شئت فاجلس واستمع معنا، وإن شئت فاذهب ! فقد رخص لنا فى اللهو عند العرس " [٤٢٥]

فهذه المأثورة تتحدث عن لهو بالغناء فى عرس، شهده صحابة بدريون، فلما اعترض أحد الصحابة – مجتهدا في منع – أخبروه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " قد رخص لنا فى اللهو عند العرس " ، ففي هذه المأثورات الثلاث ما يشهد بإباحة هذا اللهو – الغناء والمصحوب بعضه بالتمثيل – وبتخطئة الاجتهاد الذي أراد أصحابه منعه .

وغير هذه المأثورات الثلاث، التي أكدت الإباحة بتخطئة اجتهادات المنع، هناك الأحاديث الكثيرة التي تؤكد على الإباحة وتتحدث عن الفكر الشاهد لها وعليها ..

فعن عائشة – رضي الله عنها – أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عائشة، ما كان معكم لهو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو " .

وفى رواية ثانية لهذه الواقعة : أنكحت عائشة ذات قرابة لها رجلا من الأنصار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :" يا عائشة، أتعرفين هذه ؟ " قالت : لا، يا نبي الله قال : " قينة بني فلان، تحبين أن تغنيك ؟

" فغنتها ..." .

تلك هي مأثورات السنة النبوية وأغلبها وقائع " سنة عملية " – الشاهدة على إباحة هذه الفنون الجميلة – غناء وتمثيلا – وهى المأثورات التي أقرت الإباحة وأكدتها في مواجهة الاجتهاد فى المنع، فخطأت هذا الاجتهاد ..أما وقائع وروايات السنة العملية التي تحدثت عن الغناء فى مجتمع الصدر الأول، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، دون أن يكون هناك جدل ولا اجتهاد يمنع منه، فإنها كثيرة جدا فى كتب السيرة والحديث . ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

عندما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرا، فرح أهلها – كانوا ينتظرون مقدمة لعدة أيام .. حتى ليروى البراء بن عازب فيقول : ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشئ كفرحهم برسول الله، وصعدت دوات الخدور على الأسطحة من قدومه يقلن :

---

425 . رواه النسائي .

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

أما جواري – (فتيات) – بني النجار، فلقد خرجن إليه صلى الله عليه وسلم عندما بركت ناقته بباب أبي أيوب الأنصاري – من مالك بن النجار – خرجن يضربن بالدفوف ويغنين :

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فقال لهن صلى الله عليه وسلم :

" أتحبنى ؟ "

– قلن : نعم، يا رسول الله

– فقال : " الله اعلم أن قلبي يحبكم "

وعندما شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم – بعد أن استقر بالمدينة – فى بناء المسجد، كان يحمل – مع الصحابة – الطوب اللبن، مشاركا فى البناء .. وخلال العمل، كان ينشد مترنما :

هذا الجمال لا جمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر

ومن الصحابة من كان – أثناء ذلك – يغنى أغاني العمل، فيقول البعض منهم :

لئن قعدنا والنبي يعمل ذاك إذن للعمل المضلل

وكان آخرون يترنمون :

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها قائما وقاعداً
ومن يرى عن التراب حائدا [426]

ولقد صنع ذلك الأشعريون – قوم أبي موسى الأشعري – عندما قدموا إلى المدينة .. فعن أنس بن مالك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقدم عليكم غداً أقوام هم أرق قلوبا بالإسلام منكم : قال : فقدم الأشعريون – فيهم أبو موسى الأشعري– فلما دنوا من المدينة وجعلوا يرتجزون يقولون :

غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه

وحديث آخر يحكى كيف شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم " ندب " الجواري، على أنغام

---

426 . انظر ذلك في الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي ج٤ ص ١٧٨ – ١٨٣، طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م . والغزالي إحياء علوم الدين ص١١٣٠ طبعة دار الشعب . القاهرة .

الدفوف تذكر بالأبطال الشهداء فى وقائع الإسلام !.. فعن أبى حسين، قال : كان يوم لأهل المدينة يلعبون، فدخلت على الربيع بنت معوذ بن عفراء فقالت : دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد موضع فراشي هذا، وعندي جاريتان تندبان آبائي الذين قتلوا يوم بدر تضربان الدفوف فقالتا فيما تقولان :

وفينا نبي يعلم ما يكون فى غد

فقال صلى الله عليه وسلم : " أما هذا فلا تقولاه، ولا يعلم ما فى الغد إلا الله عز وجل، تلك بعض من مأثورات السنة النبوية – وأغلبها وقائع " سنة عملية " – الشاهدة على إباحة الغناء، وما صاحبه من فنون مساعدة ...

أما المأثورات التي منعت الغناء ونهت عنه وحذرت منه ومن سماعه، فإنها تبلغ اثنتي عشرة مأثورة، ما بين حديث، أو تفسير " للهو " فى الآية الكريمة ﴿ ومِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ويَتَّخِذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ تفسير " اللهو " بأن المراد به الغناء ..

وأحد هذه الأحاديث مروى عن عائشة رضي الله عنها – التي أوردنا رواياتها للعديد من الأحاديث الشاهدة على حل الغناء ! _ وفيه تقول : عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أن الله حرم المغنية – (وفى رواية : القينة) – وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها " [427] .

ولقد تتبع الإمام ابن حزم الأندلسي – (٣٨٤-٤٥٦هـ) (٩٩٤-١٠٦٤م) – وهو من هو – كظاهري فى الالتزام بالسنة، وهو من هو فى نقد الرجال والراويات – تتبع هذه المأثورات، فعرض رواتها على ما استقرت عليه قواعد الجرح والتعديل للرواة، فخلص إلى أن هذه الأحاديث جميعها معلولة .. فقال :" وكل هذا لا يصح منه شيء، وهى موضوعة " ولقد اتفق معه فى هذا النقد لهؤلاء الرواة كثيرون من المحدثين والحفاظ وعلماء الرجال .. من مثل الذهبي – صاحب (ميزان الاعتدال) – وابن حجر العسقلاني – صاحب (لسان الميزان) ...وكنموذج على هذا النقد لرواة هذه الأحاديث، ما قاله عن رواة حديث عائشة هذا، فقد قال : إن فى رواته " سعد بن أبى رزين، عن أخيه، وكلاهما لا يدرى أحد من هما "! .. وغيرهما من رواة هذه الأحاديث :" ضعاف ..ورواة ..ومجهولون ..ورواة لمعضلات " ..إلى آخر عوامل الضعف والتجريح التي تقدح في صحة هذه المأثورات ...

---

427 . رواه الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف . وقال البيهقي : ليس بمحفوظ .

• أما التفسير المنسوب إلى عدد من أئمة المفسرين للقرآن الكريم، والقائل أن المراد باللهو فى الآية ﴿ ومِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ ﴾ هو الغناء، فضلا عما فى هذا التفسير من تعارض مع الأحاديث النبوية الصحيحة التي جاء فيها الكلام عن الغناء المباح باسم اللهو : " ما كان معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو " ... " قد رخص لنا فى اللهو عند العرس " فإن ابن حزم يراه مجرد تفسير مفسرين، ممن لا يقوم بقوله حجة، وما كان هكذا فلا يجوز القول به ولقد خلص ابن حزم ـ بعد النقد لهذه المرويات ـ إلى القول :

• " فإن قال قائل : قال تعالى :﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [٤٢٨] ففي أي ذلك يقع الغناء ؟ (أي : هو من الحق، أم الضلال ؟) .

ثم أجاب عن موقع الغناء، قائلا : " أنه يقع حيث يقع التروح فى البساتين، وصباغ ألوان الثياب، وكل ما هو من اللهو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فإذا نوى المرء بذلك ترويح نفسه وإجمامها لتقوى على طاعة الله عز وجل، فما أتى ضلالا .. " [٤٢٩] .

فهو – إذن – بعض من ألوان الجمال الذي خلقه الله، ومعيار الحل والحرمة فيه هو " وظيفته " التي يوظف فيها، فإن أسهم فى ترقية السلوك الإنساني، وأعان على تذوق نعم الله والكشف عن آيات الجمال فى إبداعه كان خيرا .. وإلا فهو منكر بلا خلاف ... تلك هي شهادة ابن حزم فى هذه القضية الخلافية ...

وتلك هي قصة المنهج الإسلامي مع " شبهة " الخصام بينه وبين فن الغناء والسماع .. وهى قصة تؤكد اتساق موقف هذا المنهج الساعي إلى تنمية الحواس الجمالية فى الإنسان ؛ ليوم سعيه على درب الاكتشاف لما أودع الله فى هذا الكون من آيات الزينة والجمال .

أما آلات العزف – الموسيقى – فإن الأحاديث التي وردت فى منعها أو تحريمها، هي الأخرى معلولة، بمقاييس علم الجرح والتعديل، كنماذج لهذه الحقيقة :

• حديث عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أمرني ربى – عز وجل – بنفي الطنبور

---

428 . سورة يونس آية رقم ٣٢ .

429 . انظر آراء ابن حزم في هذا الموضوع برسالته التي أفردها له وهي (رسالة في الغناء الملهي، أمباح أم محظور ؟) ص ٤٣٠ – ٤٣٩ – منشورة في الجزء الأول من (رسائل ابن حزم الأندلسي) تحقيق ودراسة : د . إحسان عباس . طبعة بيروت سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م – وفي نهاية هذه الرسالة ما يفيد أنها عرضت على الإمام الفقيه الحافظ أبي عمر بن عبد البر، فنظر فيها، ولما سئل عن رأيه فيما جاء بها قال : " وجدتها فلم أجد ما أزيد فيها وما أنقص " .

والمزمار " رواه إبراهيم بن اليسع بن الأشعث المكي .. والنسائي يقول عنه : إنه " ضعيف " أما البخاري فإنه يقول : إنه " منكر الحديث "

وحديث على بن أبي طالب :" نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب الدف ولعب الصنج وصوت الزمارة " ...

وفى رواته عبد الله بن ميمون، عن مطر بن سالم .. والأول " ذاهب الحديث "، والثاني " شبه مجهول " ...

وحديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :" صوتان ملعونان فى الدنيا والآخرة : صوت مزمار عند نعمة، وصوت ندبة – (أو رنة) – عند مصيبة " وفى رواته : محمد بن زياد الطحان البشكرى، الذي يقول فيه أحمد بن حنبل : " أعور كذاب خبيث يضع الحديث "!

• وحديث على أبي طالب عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال :" بعثني ربى عز وجل بمحق المزامير والمعازف، والأوثان التي كانت تعبد فى الجاهلية، والخمر، وأقسم ربى عز وجل بعزته ألا يشربها عبد فى الدنيا ...."

رواة هذا الحديث : محمد بن الفرات، عن أبي إسحاق الاسبيعى، عن الحارث الأعور وجميعهم مجروحون .. فالأول منهم يقول عنه أبو بكر بن أبي شبيه : أنه " شيخ كذاب " .. والثالث قال فيه البخاري : إنه "منكر الحديث" .. وقال عنه يحيي بن معين :" ليس بشئ ولا يكتب حديثه"

ولقد قال الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر (٤٤٨–٥٠٧هـ / ١٠٥٦ – ١١١٣م) فى هذه الأحاديث وأمثالها احتج بها من أذكر السماع، جهلا منهم بصناعة علم الحديث ومعرفته، فترى الواحد منهم إذا رأى حديثا مكتوبا فى كتاب جعله لنفسه مذهبا، واحتج به على مخالفة، وهذا غلط عظيم، بل جهل جسيم " [٤٣٠] .

أما الذين حاولا تخريج دلالات الأحاديث الصحيحة، التي جاءت فى إباحة السماع، حتى لا تشهد للإباحة – ومنهم الإمام ابن تيمية (٦٦١–٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ – ١٣٢٨ م) الذي فسر حضور النبي صلى الله عليه وسلم مجلس غناء الجاريتين فى بيت عائشة، وإنكاره على أبي بكر منعهما من الغناء، فسر ابن تيمية موقف الرسول بأنه كان " يسمع " ولا " يستمع "

فإن محاولته هذه هي نموذج للتخريجات البادية التمحل والتكلف، والتي لا يمكن لمثلها أن توهن من حجج الذين يبيحون السماع ...

---

[430] . انظر : النويري (نهاية الأرب)، ج٤ ، ص ١٤٧ – ١٦٠ .

أما ابن حزم فإنه يستدل على إباحة الآلات الموسيقية بكونها مالا حلالا فى نظر أبى حنيفة (٨٠-١٥٠هـ / ٦٩٩ – ٧٦٧ م) الذي قال : " من سرق مزماراً أو عودا قطعت يده، ومن كسرهما ضمنهما، إذ لو كانت محرمة لكانت هدرا، كالخمر، وأدوات الميسر، وغيرها من المحرمات ... ولما لم تكن كذلك، فإنها مال حلال، له حرمته، من سرقه يقطع، ومن أتلفه يضمن .. إذ الأصل فى الأشياء هو الحل، ما لم يرد نص بالتحريم .

أما الإمام الغزالي – والذي عرض للسماع، غناء وموسيقى، بدراسة مسهبة – فإنه يجمل الموقف الإسلامي المنحاز إلى الاستماع الحلال بالجماليات الحلال – غناء وموسيقى، عندما يرى ذلك فطرة إنسانية يزكيها الإسلام، الذي ينكر التجهم والخصام مع جماليات الحياة .. فيقول ... ومن لم يحركه الربيع وأزهاره، والعود وأوتاره، فهو فاسد المزاج ، ليس له علاج ! ... ومن لم يحركه الإسماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال، بعيد عن الروحانية، زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور، وبل على جميع البهائم ! فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة

الصـور :

أما " خصام " المنهج الإسلامي مع " فنون التشكيل " رسما ونحتا وتصويرا – الذي يحسبه الكثيرون خصاما حقيقيا .. فإن هذا الحسبان – هو الآخر – ليس أكثر من وهم من الأوهام ! ..... وسبيلنا إلي إزالة هذا الوهم، ونفي هذا الخصام، هو النظر فى المصادر النقية والجوهرية لهذا المنهج – القرآن والسنة – ثم الاستئناس بآراء واجتهادات بعض الفقهاء – القدماء والمحدثين – فى هذا الموضوع ... وذلك وصولا إلى جلاء الموقف الحقيقي للمنهج الإسلامي من فنون الرسم والنحت والتصوير .

فى القرآن الكريم :

بادئ ذي بدء .. فإن القرآن الكريم لم يتخذ من التصوير للأحياء موقفا معاديا بالإطلاق وتعميم ... بل لقد أناط الأمر بالمقاصد والغايات والنتائج والثمرات .. فإذا كانت الصور والتماثيل وسائل للشرك بالله، وسبلا ينحرف البعض بتعظيمها عن عقيدة التوحيد، كان الرفض لها والتحريم لصنعها هو موقف القرآن .. أما إذا كانت لمجرد الزينة والتجمل والجمال عند الإنسان، كذلك إذا كانت لتخليد القيم والمعاني والمآثر الطيبة والجميلة ... الخ فإنها عندئذ تصبح من الطيبات المباحة، بل المقصودة المرغوبة، باعتبارها من نعم الله على الإنسان !

ولقد عرض القرآن الكريم للحديث عن " التماثيل " صراحة وبالنص – فى مواطن ثلاثة .. جاء حديثه عنها فى أحد هذه المواطن حديث الرافض المحرم .. وفى الثاني حديث العاد لها من نعم الله على الإنسان، وفى الثالث حديث العاد لها معجزة لنبي من أنبياء الله !

ففي سورة " الأنبياء " وبصدد الحديث عن قوم إبراهيم عليه السلام أولئك الذين اتخذوا التماثيل أصناما عبدوها من دون الله، جاء حديث القرآن معاديا لهذه التماثيل، ومن ثم – بالتبعية – لصناعتها عندما تستهدف هذا الشرك بالله ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [431]، ولم يقف الموقف القرآني من هذه " التماثيل " عند حد التسفيه بالقول والحجة والمنطق بل أراد الله لنبيه إبراهيم أن يحطم هذه " التماثيل " ويمحور وجود هذه الأصنام ...فاستمر سياق القرآن يتحدث عن قول إبراهيم عليه السلام لقومه : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ وما صنعه إبراهيم مع " التماثيل " المعبودة، هو ما صنعه خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم عندما طهر شبه الجزيرة العربية من كل أثر لها، وأذن فى الناس – يومئذ – وهو يحطمها، قائلا : ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[432] .

أما الموطن الثاني الذي عرض فيه القرآن – باللفظ – للحديث عن التماثيل، فكان فى معرض تعداد نعم الله سبحانه على نبيه سليمان – عليه السلام – فلقد ذكر القرآن " التماثيل "، وصنعها وصانعيها باعتبارها من نعم الله على نبيه سليمان ... فهو قد سخر له الريح ... وأتاح له عينا تفيض بالنحاس المذاب (القطر) .. وسخر له بعضا من زينة الحياة الدنيا وجمالها : بيوتا عالية (محاريب) وحفرا كبيرة (جفان) ... وقدورا راسيات ... وأيضا " تماثيل " من زجاج ونحاس ورخام، تصور الأحياء، بل وتصور الأنبياء والعلماء ! – كما يقول المفسرون [433] .... ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ

---

431 . سورة الأنبياء ٥٦:٥١ .

432 . سورة الإسراء ٨١ .

433 . القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، ج٤ .

يَدَيْه بإذْن رَبّه وَمَن يَزِغْ منْهُمْ عَنْ أَمْرنَا نُذقْهُ منْ عَذَاب السَّعير * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ من مَّحَاريبَ وَتَمَاثيلَ وَجفَان كَالْجَواب وَقُدُور رَّاسيَات اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَليلٌ مّنْ عبَاديَ الشَّكُورُ ﴾ [434] فالتماثيل هنا – وعند انتفاء مظنة عبادتها – هي من نعم الله على الإنسان، وعاملها وصانعها إنما يعملها (بإذن ربه) .... وعلى الذين أنعم الله عليهم بهذه النعمة مقابلتها بالشكر لله – وأحد مظاهره : اكتشاف ما فيها من جمال ....

أما الموطن الثالث – الذي ورد فيه حديث القرآن عن تماثيل الأحياء – فذلك الذي جاء فيه الحديث عن معجزات نبي الله عيسي بن مريم عليهما السلام ﴿ ويُعَلِّمُهُ الكتَابَ والْحكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإنجيلَ * ورَسُولاً إلى بَني إسْرَائيلَ أَنّي قَدْ جئْتُكُم بآيَة مِّن رَّبِّكُمْ أَنّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّين كَهَيْئَة الطَّيْر فَأَنفُخُ فيه فَيَكُونُ طَيْراً بإذْن اللَّه وأُبْرئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وأُحْيي الْمَوْتَى بإذْن اللَّه وأُنَبِّئُكُم بمَا تَأْكُلُونَ ومَا تَدَّخرُونَ في بُيُوتكُمْ إنَّ في ذَلكَ لآيَةً لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمنينَ ﴾ [435] وقال عز وجل : ﴿إذْ قَالَ اللَّهُ يَا عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نعْمَتي عَلَيْكَ وعَلَى والدَتكَ إذْ أَيَّدتُّكَ برُوح القُدُس تُكَلِّمُ النَّاسَ في الْمَهْد وكَهْلاً وإذْ عَلَّمْتُكَ الكتَابَ والْحكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإنجيلَ وإذْ تَخْلُقُ منَ الطِّين كَهَيْئَة الطَّيْر بإذْني فَتَنفُخُ فيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بإذْني ﴾ [436] فهي هنا، وحيث لا مظنة للشرك، ولا خطر على التوحيد: آية من آيات الله ونعمة من نعمه على عيسى عليه السلام.

إذن ... فموقف القرآن الكريم من التصوير والتماثيل للأحياء، ليس عاما، وليس مطلقا .. فحيثما تكون سبيلا للشرك بالله – شركا جليا أو خفيا – فهي حرام، والواجب تحطيمها .. أما عندما تنتفي مظنة عبادتها وتعظيمها والشرك بواسطتها فهي عندئذ من نعم الله، التي يجب على الإنسان أن يقصد إليها، وأن يتخذ منها سبيلا لترقية حسه وتجميل حياته، وتزكية القيم الطيبة وتخليدها ...

هذا عن موقف القرآن الكريم من فنون التشكيل ...

بل إننا إذا نظرنا فى البلاغ القرآني وأمعنا النظر فى أساليبه فى التعبير عن المعاني التي يريد الله إبلاغها إلى العالمين، فسنجد فى هذه الأساليب السبل والوسائل والأدوات التي يعتمدها القرآن لتنمية الحاسة الجمالية لدى الناظر فى القرآن الكريم ...

---

434 . سورة سبأ ١٢، ١٣ .

435 . سورة آل عمران ٤٨، ٤٩ .

436 . سورة المائدة ١١٠ .

إن بلاغة القرآن هي بعض من إعجازه، وهذه الحقيقة لا يمكن إدراكها ووعيها، ومن ثم الإيمان بها إلا من قوم قد ارتقت بهم الحاسة الفنية إلى حيث يدركون ما فى هذا الكتاب من أسرار الإعجاز وفنون البيان.... فالإيمان بالإعجاز القرآني مرهون بازدهار الحاسة الفنية لدى المسلم، وبتحويل هذه الحاسة إلى قسمة ملحوظة فى الحضارة الإسلامية، ومن ثم فإن البداهة قاضية بأن يكون القرآن داعيا يزكى تنمية الحاسة الفنية لدى المسلمين .

وإذا انتقلنا فى هذه القضية – من مجال التعميم إلى ميدان الدراسة الواقعية رأينا كيف امتلأت سور القرآن الكريم بما نسميه فى الدراسات الأدبية والفنية بـــ " التعبير بالصور " أي رسم الصور الحسية كي تعبر بها آياته عن المقولات والمعاني والأفكار ..

فنحن – فى القرآن – أمام " لوحات " تعبر بالصور المرئية والمحسوسة عن المعاني والأفكار والمعقولات، أي أمام " التمثيل " و " التصوير " !...

- فعندما يتحدث القرآن الكريم عن الذين كفروا، فأحبط الكفر أعمالهم، وأضاع الأثمار المرجوة من مثلها، نجده " يمثل " هذه " الفكرة " فيعرضها فى " صور " محسوسة، و" يرسمها " فى لوحات فنية تراها العين عندما ينطق بكلماتها اللسان !.. فأعمال هؤلاء الكفار : رماد هبت عليه الريح العاصفة، فلم تبق منه لأصحابه كثيراً ولا قليلا ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾[437] .

ولوحة فنية أخرى يصور فيها القرآن الكريم هؤلاء الكافرين الذين جعلهم تنكبهم عن الحق ودعوته وأهله وهديه بمثابة الأصم البكم المعطلة ملكاتهم العقلية، أما ما يهذون به فليس إلا النعيق ... ﴿ ومَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً ونِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾[438] .

أما اليهود الذين حولوا كتابهم – التوراة – إلى " شكل " غريب غاب من ساحتهم ما به من " مضمون " فإنهم كمثل الحمار يحمل الكتب الثقيلة الكثيرة دون أن يدرى من مضمونها شيئاً، أو ينفع بقليل من هذا المضمون ! .. ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ

---

437 . سورة إبراهيم١٨ .

438 . سورة البقرة١٧١ .

يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَذينَ كَذَّبُوا بآيَاتِ اللَّهِ واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالمينَ ﴾ [٤٣٩] .

أما ذلك البائس الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها بدلا من أن يلتزمها ويهتدي بها، فإن الغواية قد أصابته ببؤس جعل منه الكلب اللاهث فى كل الحالات : ﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَذي آتَيْنَاهُ آيَاتنَا فَانسَلَخَ منْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ منَ الغَاوينَ * ولَوْ شئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بهَا ولَكنَّهُ أَخْلَدَ إلى الأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إن تَحْملْ عَلَيْه يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلكَ مَثَلُ القَوْمِ الَذينَ كَذَّبُوا بآيَاتنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٤٤٠]

• وطلاب الحياة الدنيا ... أولئك الذين يقفون منها عند حدود اللعب واللهو والزينة والتفاخر بما لا يستقر ولا يثبت ولا يدوم .. يرسم القرآن الكريم لهم ولما اختاروه ووقفوا عنده لوحات تجسد لهم الضياع الذي اختاروا والبؤس الذي ينتظرهم انتظار المصير .. فهذا النبات الذي جادت به الصحراء بعد أن زارها المطر، سرعان ما تصيبه الصفرة، ثم يصبح حطاما .. ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعبٌ ولَهْوٌ وزينَةٌ وتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وتَكَاثُرٌ في الأَمْوَالِ والأَوْلاد كَمَثَلِ غَيْث أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وفي الآخرَة عَذَابٌ شَديدٌ ومَغْفرَةٌ مِّنَ اللَّه ورضْوَانٌ ومَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ مَتَاعُ الغُرُور ﴾[٤٤١]، ﴿ واضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاة الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ منَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ به نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدراً ﴾ [٤٤٢]، ﴿ إنَّمَا مَثَلُ الحَيَاة الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ منَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ به نَبَاتُ الأَرْضِ ممَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ حَتَّى إذَا أَخَذَت الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنَتْ وظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأَمْسِ كَذَلكَ نُفَصِّلُ الآيَات لقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٤٤٣] .

نعم كذلك يفصل الله الآيات، كذلك يصور القرآن الأفكار فيحيل المعقولات إلى صور محسوسة تعرضها آياته الكريمة فى لوحات .

• وأما أولئك الذين يفسدون ثمرات إنفاقهم الأموال بالرياء والسمعة والتفاخر، عندما يجعلونها المقاصد والغايات وراء الإنفاق، فإن إنفاقهم هذا تراب وغبار غطى سطح جبل صخري أملس،

---

439 . سورة الجمعة٥ .

440 . سورة الأعراف ١٧٥، ١٧٦ .

441 . سورة الحديد٢٠ .

442 . سورة الكهف٤٥ .

443 . سورة يونس٢٤ .

فالناظر إليه يحسبه ترابا، لكن وابل المطر سرعان ما يعرى الزيف ويكشف الصلد ويذهب بثمرات الإنفاق الذي لم يقصد به وجه الله .. ﴿ يَا أَيُّهَا الَذينَ آمَنُوا لا تُبْطلُوا صَدَقَاتكُم بالْمَنِّ والأَذَى كَالَّذي يُنفقُ مَالَهُ رئَاءَ النَّاسِ ولا يُؤْمنُ باللَّه والْيَوْمِ الآخرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْــه تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا واللَّهُ لا يَهْدي القَوْمَ الكَافرينَ ﴾ [444] أما إذا كان الإنفاق فى سبيل الخير ومصالح الأمة وابتغاء مرضاة الله، كما هو الواجب، وكما هو شأن المؤمنين، فإن ثمراته تبقى، بل تزدهر وتتضاعف .. ﴿ ومَثَلُ الَذينَ يُنفقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتغَاءَ مَرْضَات اللَّه وتَثْبيتاً مِّنْ أَنفُسهِمْ كَمَثَلِ جَنَّة برَبْوَة أَصَابَهَا وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضعْفَيْنِ فَإن لَّمْ يُصبْهَا وابِلٌ فَطَلٌّ واللَّهُ بمَا تَعْمَلُونَ بَصيرٌ ﴾ [445] لوحتان تجسدان الأفكار والمعاني والمعقولات بالصور المرئية والمحسوسة، تعرضهما الآيتان المتتابعتان : فالتراب الذي يعلو الصخر الأملس سرعان ما يذهب به المطر بينما يسبب هذا المطر النماء للحديقة التي تعلو الربوة فتؤتى أكلها ضعفين، فشتان مابين الربوتين المتقابلين، عندما يترل المطر عليهما فتتحول إحداهما إلى صخرة جرداء بينما تصبح الثانية جنة غناء ..

* والكلمة .. الفكرة.. كثيرا ما تتحول فى آيات القرآن الكريم – بالتمثيل – إلى صورة محسوسة، ينمى إبداعها الحاسة الفنية للمتدبرين المتفكرين، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَة طَيِّبَة أَصْلُهَا ثَابتٌ وفَرْعُهَا في السَّمَاءِ * تُؤْتي أُكُلَهَا كُلَّ حين بإذْن رَبِّهَا ويَضْربُ اللَّهُ الأَمْثَالَ للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [446]

وفى مقابل هذه الشجرة ذات الأصل الثابت الراسخ، والفروع السامقة فى السماء، والتي تعطى طيب العطاء فى كل الأحايين .. فى مقابلها، وعلى الضد منها، صورة الكلمة الخبيثة ... ﴿ومَثَلُ كَلمَة خَبيثَة كَشَجَرَة خَبيثَة اجْتُثَّتْ من فَوْق الأَرْضِ مَا لَهَا من قَرَار ﴾ [447] .

هكذا وعلى هذا النحو تتناثر فى القرآن الكريم تلك " الصور" التي تجسد الأفكار وترسم المعقولات وتحول المعاني إلى لوحات فنية تقرأ باللسان، وترى بالبصيرة، وترتسم فى المخيلة .. وتكاد أن تلمسها الحواس التي تستشعر جمال إعجاز القرآن الكريم ..وهكذا تتحالف هذه السبل من التعبير

---

444 . سورة البقرة ٢٦٤ .

445 . سورة البقرة ٢٦٥ .

446 . سورة إبراهيم ٢٤، ٢٥ .

447 . سورة إبراهيم ٢٦ .

الجمالي والتربية الجمالية، مع صريح موقف القرآن من التماثيل، كنشاط جمالي، على بيان الموقف الحقيقي للقرآن الكريم من فنون التشكيل الجمالي – رسما ونحتا وتصويرا وهو الموقف الذي يرى فيها نعمة من نعم الله وآية من آياته، إذا أمن الناس الشرك والتعظيم لغير الله .

والسنة النبوية :

أما موقف السنة النبوية .. فهو الذي يحتاج إلى التفصيل والتفسير والمقارنات وذلك لان أغلب " أدلة " الذين اصطنعوا " الخصومة " بين المنهج الإسلامي وبين هذه الفنون، كانت أحاديث نبوية، استند إليها الفقهاء الذين قالوا بالتحريم لهذه الفنون ...فلقد انطلق عدد من العلماء الذين حرموا الرسم والنحت والتصوير من ظاهر نصوص عدد من الأحاديث النبوية الشريفة، ليقولوا : إن السنة النبوية قد حرمت الصور والتماثيل للأحياء – حيوانات كانت أو إنسانا – وأنها بذلك قد نسخت الإباحة التي كانت لها فى شريعة النبي سليمان عليه السلام ... وحتى إذا سلمنا بالقول بالنسخ – وكثيرون ينكرونه – فإننا سنجد أن علة حدوث هذا النسخ هي : تحول الصور والتماثيل – فى الواقع الذي ظهر فيه الإسلام – إلى معبودات، كما كانت حالها لدى قوم إبراهيم عليه السلام وهو ما لم تكنه زمن نبوة سليمان .. وإذا كانت الأحكام تدور مع عللها وجودا وعدما، فإن التحريم للتماثيل والصور سيصبح – بداهة – مرهونا ومشروطا ومعللا بمظنة اتخاذها أندادا تشارك الله فى الإلوهية والتعظيم، فإذا ما انتفى هذا السبب وزالت هذه المظنة انتفى التحريم، وعادت الإباحة حكما للصور والتماثيل، من جديد ..

كما أن " النظرة الشاملة " وأيضا " الاستقرائية " للأحاديث النبوية التي رويت فى "الصور والتماثيل " تؤكد هذا الذي نذهب إليه، وتقطع بأن التحريم مرهون ومشروط ومعلل بكون الصور والتماثيل مظنة العبادة والإشراك بالله، كما أنها تفصح عن أن هذه الأحاديث التي تنهى عن " الصور والتماثيل " وإنما كانت تعالج شئون جماعة بشرية هي قريبة عهد بالشرك والوثنية، وحديثة عهد بالتوحيد الإسلامي، وأن توحيدها لله – سبحانه – قد خرج بها من هذه الحالة خروج الدواء بالمريض من مرحلة العلة إلى بدايات طريق الشفاء ..فهي قد خرجت من الوثنية وعبادة الصور والتماثيل، لكنها كانت لا تزال فى " دور النقاهة "، الأمر الذي استدعى تركيز الأحاديث النبوية على النهى عن اتخاذ الصور والتماثيل، سدا للذرائع، وتقديما لدفع المضرة على جلب المصلحة – وهى قواعد تشريعية إسلامية – وذلك كيلا تعود هذه الجماعة إلى مرض الوثنية والشرك من جديد !..

وإذا كان ضبط المصطلحات هو مما يعين على دقة الفهم وجلاء القضية، فإن من الواجب أن ننبه على أن

" الصورة " فى الأحاديث النبوية التي عرضت لهذه القضية إنما يراد بها " الصنم والوثن المعبود " من قبل المشركين .. فلم يكن بمكة أو المدينة، أو البوادي من حولهما – يومئذ " حركة فنية " تصور بالألوان، أو بآلات التصوير ... كانت الصورة هي " الصنم والوثن " ينحت نحتا أو يرسم بالنسيج على النسيج أو بالرسم أو بالحفر على الجدران، والأثاث، ومن هنا فإن النهى عن "الصور" وذم "المصورين" هو حديث عن "الأصنام والأوثان" وعن الذين يحترفون صناعة هذه "الأصنام والأوثان" وليس حديثا عن "الصور" و "المصورين"، بالمعنى الذي يراد اليوم عند الحديث عن فنون التشكيل وفنانيها !.. يشهد لهذه الحقيقة الهامة المقارنة بين حديثين شريفين ورد فيهما مصطلح " الصور "، ويفسر ثانيهما الأول على النحو الذي يضبط معنى هذا المصطلح ضبطا لا سبيل معه إلى التجاوز أو الإبهام ..

ففي الحديث الذي يرويه عبد الله بن عمر، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " الذين يصنعون هذه الصور يعذبون، ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم " ... _ رواه أحمد_ أما الضبط لمعنى " الصورة " على النحو الذي أشرنا إليه، فإننا واجدوه فى الحديث الذي يرويه أبو هريرة، والذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم متحدثا عن خير الناس يوم القيامة : " يجمع الناس يوم القيامة فى صعيد واحد، ثم يطلع عليهم رب العالمين، ثم يقال : ألا تتبع كل أمة ما كانوا يعبدون ؟ فيتمثل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب الصورة صوره، ولصاحب النار ناره، فيتبعون ما كانوا يعبدون ،ويبقى المسلمون ..." رواه البخاري_ فالأمم التي انحرفت عن التوحيد فى الإلوهية والربوبية، قد تمثلت لها معبوداتها ... الصليب لعباد الصليب .. والصور = أي الأصنام – للوثنيين .. والنار للمجوس .. فالصورة – إذن – هي " الصنم والوثن " المعبود – للمشركين – من دون الله ... وليست تلك التي تعارف عليها اليوم عندما نتحدث عن "الصور " وعن " المصورين " ..

وثانية الحقائق التي يجب التنبيه عليها ونحن مقدمون على استعراض المأثورات والأحاديث النبوية التي رويت فى هذا الموضوع، هي وجوب الاستحضار والتدبر للمناخ والبيئة والإطار الذي قيلت فيه هذه الأحاديث، ذلك حتى ندرك فيها ومنها المقاصد والعلل والحكم والغايات، فهي قد قيلت للمؤمنين كانوا محاطين بعبدة الصور والتماثيل الذين لم يؤمنوا بعد ... وصناع النسيج

والأوثان والأدوات – وهم فى الأساس من غير العرب – كانوا يزينون مصنوعاتهم ومنسوجاتهم بصور الآلهة – (الأصنام) – ترويجا لها فى البيئة الوثنية .. ومن هنا كان النهى عن هذه " الصور " نهيا عن الوثنية ودعوة إلى تنقية المنازل والأندية من صور الأصنام المعبودة فى الجاهلية، وسعيا لاجتثاث جذور المرض الوثني، وذلك حتى تبرأ هذه الجماعة البشرية تمام من الشرك والتعددية، فتخلص العبودية لله وحده، وترسخ فى قلوبها عقيدة التوحيد ... ولذلك جاء النهى عن " الصور " التي تمثل الأحياء – وهى التي كانت تعبد – ولم يحدث نهى عن صور الشجر، أو تلك التي تحاكى الطبيعة، إذ لم تكن من المعبودات.. فالمستهدف ليس "الفن" ولا "الجمال" وإنما الوثنية والمسارب التي يمكن أن تؤدى إلى عودة الإشراك بالله مرة أخرى إلى عقائد الناس ...

فى إطار هذه الحقائق نقرأ ونفهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صور صورة عذاب يوم القيامة حتى ينفخ فيها، ليس بنافخ .." ـ رواه البخاري ـ أي حتى ينفخ فيها الروح فيحييها، وأنى له أن يصنع ذلك ولقد جاء رجل من أهل العراق، كان يحترف التصوير، جاء إلى عبد الله بن عباس، فقال له : " يا بن عباس : إني رجل أصور هذه الصور، وأصنع هذه الصور، فأفتني فيها ؟ " فقال له ابن عباس : " أنبئك بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعت رسول الله يقول : كل مصور فى النار، يجعل له بكل صورة صورها نفس تعذبه فى جهنم " ثم أستطرد ابن عباس فأشار على الرجل أن يصور ما لا حياة فيه، فيمارس " الفن الجميل " فى غير ما هو مظنة الوثنية، مما جاء فيه النهى والتحريم .. فقال للرجل : " فإن كنت لابد فاعلا، فاجعل الشجر وما لا نفس فيه .." [448] .

ولقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحكم وهذا الموقف موضع التطبيق، فقاد المسلمون حملة إزالة وتحطيم لصور المعبودات الوثنية وتماثيلها ... صنعوا ذلك بالمدينة – قبل فتح مكة وتطهير الكعبة ... ففي الحديث الذي يرويه على بن أبى طالب رضي الله عنه وكرم وجهه، يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فقال :" أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثنا إلا كسره ولا قبرا إلا سواه ولا صورة إلا لطخها ؟ فقال (سبعة) : أنا يا رسول الله، فانطلق، فهاب أهل المدينة، فرجع، فقال على بن أبى طالب : أنا يا رسول الله، فانطلق، ثم رجع، فقال : يا رسول الله، لم أدع بها وثنا إلا كسرته، ولا قبرا إلا سويته، ولا

---

448 . رواه الإمام أحمد .

صورة إلا لطختها، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من دعا لصنعة شيء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد ..." [449] .

فالإزالة والتحطيم – هنا – كانت لرموز وثنية، بما فيها القبور المعظمة وشواهدها ! ويوم فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب أن يتقدمه إلى الكعبة فيزيل من داخلها الصور والتماثيل المعبودة والمعظمة، والتي كانت تمثل إبراهيم وإسماعيل ومريم عليهما السلام ... فعن ابن جريج : " .... أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الصور فى البيت، ونهى الرجل أن يصنع ذلك، وأنه أمر عمر بن الخطاب _ زمن الفتح وهو بالبطحاء _ أن يأتي الكعبة فيمحو كل صورة فيها، ولم يدخل البيت حتى محيت كل صورة فيه ..." [450]

ويروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما رأى الصور فى البيت – (يعنى الكعبة) – لم يدخل، وأمر بها فمحيت ورأى – (صور) – إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – بأيديهما الأزلام، فقال : قاتلهم الله ! والله ما استقسما بالأزلام قط " [451] .

وفى البخاري أن عمر بن الخطاب كان يمتنع عن دخول الكنائس من أجل ما فيها من التماثيل والصور المعبودة " وكان ابن عباس يصلى فى البيعة إلا بيعة فيها تماثيل " .. فالنهى والتحريم – فى النظرية والتطبيق – يستهدف مظان الشرك، وشراك الوثنية، والروافد التي تحفظ الحياة لنقيض عقيدة التوحيد، أو تغبش نقاء هذا التوحيد ! وليس التصوير أو النحت أو الرسم، كفن من فنون الجمال .. فالأول – مصادر الشرك ورموزه ومظانه – بينه وبين التوحيد الإسلامي العداء والتناقض القائم والصراع الذي لا يزول .. أما الفن التشكيلي – رسما ونحتا وتصويرا – فإنه لون من ألوان النشاط الجمالي للإنسان، يدور الحكم فيه والموقف منه مع علته وغايته ومنفعته وجودا وعدما، إن فى الإباحة أو الاستحباب، أو المنع، كراهة أو تحريما ...

فإذا ما جئنا إلى التجربة العملية – وأيضا الذاتية – لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع الصور، وفى داخل بيته، ومع أهله، رأينا الأحاديث التي تحكى هذه التجربة شاهدة على هذا الذي نقول، فعندما تكون الصور مظنة شبهة الإيحاء بتعظيمها، أو تمثل شاغلا يصرف المصلى

---

449 . رواه مسلم .

450 . رواه أحمد .

451 . رواه أحمد، (الأزلام هي السهام التي كان يستقسم بها المشركون فى الجاهلية . كانوا يكتبون على أحدها أمر وعلى الآخر نهى وعلى واحد منها افعل وعلى الثاني لا تفعل، ويستقسمون عند إرادة السفر أو القيام بعمل ما) .

عن الحضور المستغرق فى صلاته ومثوله بين يدي مولاه، أو مظنة شبهة الإيحاء بأن التوجه فى الصلاة إنما هو إليها ! .. عندما يكون الأمر ذلك، أو نحوا منه، أو موهما لشيء مما يحتويه، يكون نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عنها، ودعوته لإزالتها .. فإذا ما تحولت هذه الصور عن أماكنها هذه، فزالت عنها تلك المظنة والشبهة، غدت مقبولة فى بيت النبوة، بل أصبحت مما يستخدمه الرسول صلى الله عليه وسلم ...

فعائشة – أم المؤمنين – تروى الحديث فتقول " قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر، وقد اشتريت نمطا (ثوبا من صوف – أو : بساطا) فيه صورة، فسترته على سهوة بيتي – (السهوة : الرف، أو الطاق، أو الكوة) فلما دخل صلى الله عليه وسلم كره ما صنعت، وقال : تسترين الجدر يا عائشة ؟! فطرحته، فقطعته مرفقين (وسادتين) – فقد رأيته متكئا على إحداهما وفيها صورة " [٤٥٢] .

فكراهة الرسول هنا للصورة قد ارتبطت بكونها ترفا يستهدف مجرد ستر الجدر ! .. وبكونها بهذا الوضع فى مثل هذا الموقع مما يستقبله المصلى، فتشغله، أو توهم بمظنة استقبالها فى الصلاة ! فلما انتقلت الصورة إلى الوسادة لم يكرهها رسول الله، ولم ينه عنها، بل استخدم الوسادة " فيها الصورة " كما تقول عائشة فى الحديث !

ويؤكد هذا التفسير – هذا إذا كان محتاجا إلى تأكيد ! حديث الصحابي أنس بن مالك – وهو خادم الرسول صلى الله عليه وسلم، العارف بشئون منزله – الذي يقول فيه :" كان قرام (ستر) لعائشة قد سترت به جانب بيتها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" أميطي عنا قرامك هذا، فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي فى صلاتي " [٤٥٣] فالنهى خاص ومعلل بمكان وضعه، والسبب فى إزالته هو أن تصاويره تعرض أمام الرسول إذا قام للصلاة أي أن العلة هي قصد الابتعاد عما يشغل المصلى عن الصلاة، وإزالة كل ما من شأنه إيجاد شبهة مظنة التعظيم لغير الله .

ولذلك ... فعندما تزول هذه الشبهات وهذه المظان وهذه المحاذير عن الصور والتماثيل، فإن الحكم فيها والموقف يتغير بالتأكيد، فليس القصد هو تحريم الصور والتماثيل، إذا كانت فنا جميلا يرتقى بالحاسة الفنية والمشاعر الجمالية للإنسان، لمجرد أنها فن، وبعلة أنها صور وتماثيل .

---

452 . رواه أحمد .

453 . رواه أحمد .

وإذا كان القرآن الكريم – كما سبقت إشارتنا – قد حكي لنا نبأ التماثيل فى عهد النبي سليمان – عليه السلام – باعتبارها نعما إلهية، يصنعها صانعوها بإذن الله، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن سوق فى الجنة كل بضاعتها الصور، صور النساء والرجال ! .. ففي الحديث الذي يرويه سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :" أن الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من النساء والرجال، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها ..." فهي هناك لن تقود إلى الشرك أو وثنية .. ومن ثم فهي حلال .. بل ونعمة من نعم الله – سبحانه وتعالى – على الصالحين من عباده فى جنات النعيم ..

بل إن مجتمع المدينة ذاته، ذلك الذي شهد التحريم للصور – نظريا وعمليا، وعندما كانت مظنة الشرك بالله والتعظيم لسواه – إن هذا المجتمع ذاته قد تغيرت نظرته للصور والتماثيل عندما أخذ يبرأ من مرض الوثنية والتعدد فى المعبود .. فعندما دخل المسور بن مخرمة على عبد الله بن عباس " يعوده فى مرض مرضه، فرأى عليه ثوب إستبرق وبين يديه كانون عليه تماثيل، قال : والله ما علمت به، وما أظن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه إلا للتجبر والتكبر، ولسنا – بحمد الله – كذلك قال : فما هو الكانون الذي عليه الصور ؟! قال ابن عباس : ألا ترى كيف أحرقناها بالنار ؟!..." [٤٥٤] .

فابن عباس هنا يجتهد فيرى أن علة تحريم لبس الإستبرق هي التجبر والتكبر، فإذا زالت العلة زال التحريم ... ويجتهد كذلك فيرى أن علة تحريم التماثيل هي التعظيم لها أو شبهة التعظيم والعبادة لها من دون الله، فأما وقد وضعت حيث لا تعظيم لها، وأما وقد أمن الناس من مظنة عبادتها، وغدت مجرد حلية يتزين بها الكانون، فإنه لا تحريم .

وعندما ينزع الصحابي أبو طلحة الأنصاري نمطا (ثوبا من صوف – سترا) من على فراشه، فيسأله الصحابي – سهل بن حنيف :" لم تنـــزعه ؟! فيقول : لأن فيه تصاوير، وقد قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قد علمت " يرد سهل بن حنيف قائلا : " أو لم يقل الرسول : إلا ما كان رقما فى ثوب ؟! [٤٥٥] فنعلم من ذلك أن النهى ليس مطلقا، وأن ما كان مقصودا به منفعة الزينة والجمال – من الصور – وبعيدا عن شبهات مظان الوثنية والشرك والعبادة – كالصور إذا كانت " رقما فى ثوب " أي نقشا يزينه ويجمله – فلا نهى عنه، فى هذا الحال، ولا تحريم له .

---

454 . رواه أحمد .

455 . رواه أحمد – (ومثله مروي عند البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة) .

إذن فالسنة النبوية – مثلها فى ذلك مثل القرآن الكريم – لا تحرم الصور والتماثيل على التعميم والإطلاق .. وإنما التحريم فيها – كالتحريم فى القرآن – خاص ورهن ومشروط بالمواطن التي تصبح فيها الصور والتماثيل شراكا للشرك وحبالا للوثنية وسبلا لتعظيم غير الله .. أما إذا كانت للمنفعة، وتجميل الحياة وزينتها المشروعة، وتخليد القيم الفاضلة وتزكيتها، وتنمية مشاعر الجمال الإنسانية، فإن موقف السنة النبوية يصبح معها لا ضدها ؛ لأنها – بذلك تنتقل من الأمور الضارة إلى حيث تصبح واحدة من نعم الله على الإنسان

وموقف الفقهاء :

وإذا كان لنا أن نشير إلى موقف الفقهاء من هذه القضية ... قضية " الفن الجمالية " بعامة، و" فنون التشكيل " على وجه الخصوص .. فمن المهم أن ننبه على أن بعضا من الفقهاء فى فكرنا الإسلامي قد انحازوا إلى صف التحريم لهذه الفنون، بدءا من الغناء والموسيقى وانتهاء بالرسم والنحت والتصوير . وأن هؤلاء الفقهاء الذين اختاروا موقف " المنع .. أو الكراهة .. أو التحريم " قد وقفوا عند حرفية وظواهر المأثورات التي منعت أو حرمت هذه الفنون، رغم العلل التي قدحت وتقدح فى صحتها، ولم ينحازوا إلى المأثورات التي أباحت هذه الفنون ... وذلك فضلا عن أنهم لم يقدموا التفسير الذي يربط المأثورات بملابسات قوله، وبالعلة والحكمة التي يجب أن يدور معها حكمه وجودا وعدما .. إن هؤلاء الفقهاء قد وقفوا هذا الموقف، لا غفلة منهم ولا تقصيرا – كما قد يحسب الذين يسيئون الفهم والتفهم – وإنما كان ذلك لأسباب .. فى مقدمتها :

أ– أن هذه الفنون – فى تاريخنا الحضاري – سرعان ما غلبت عليها علل المجون والتخنث والانحرافات الفساق، حتى غدت معاول للهدم وشراكا للترف الذي أصاب قوى الأمة وقدراتها بالتفكك والانحلال، حدث ذلك فى دوائر الأمراء ... والسراة، والعامة على حد سواء .. بل لقد استخدم بعض الأمراء فنون الانحلال سلاحا يشل قدرات الأمة عن المعارضة والتطلع إلى السلطة والسلطان !

ب – أن التصرف الفلسفي – ذا المنطلقات والجذور " الغنوصية الباطنية " وقد ذهب به الغلو فى استخدام " السماع " و " الوجد " وذهبت به تصورات " الحلول " و " الفناء " و " وحدة الوجود " إلى الحد الذي جعل هؤلاء الفقهاء – وهم الأعداء الألداء لهذا التصرف – يرون فى هذه الفنون شراكا تغبش عقائد الأمة وتعطل طاقات الإبداع لدى أبنائها – لقد عادت هذه الفنون –

بنظر هؤلاء الفقهاء – مرة أخرى إلى دائرة المنع والتحريم عندما دارت علل الإحكام فيها إلى دائرة الضرر المحقق، أو المحتمل على العقائد والشرائع، كما كان الحال عندما ظهر الإسلام ..

تلك هي – فى تقديرنا – أسباب انحياز نفر من فقهاء تلك العصور، التي غلبت على فنونها هذه التحولات، انحيازهم إلى القول " بالتحريم " ..وهى أسباب تؤكد على صدق المنهج الذي به موقف الإسلام فى هذه الفنون ...

ومع ذلك فإن التاريخ الفكري للفقه والفقهاء – فى حضارتنا لم يخل من مواقف فكرية – بل وممارسات عملية – ايجابية لعدد من أعلام الفقه والأصول إزاء هذه الفنون .. لا الغنائية فقط، كما أسلفنا الإشارة إلى نماذجهم – كابن حزم والغزالي مثلا – وإنما أيضا إزاء فنون التشكيل..

إن قطاعا هاما من المفسرين للقرآن، ومن الفقهاء قد أباحوا التصوير والنحت، إذا كانت لهما ضرورة اجتماعية أو تربوية .. وعلى سبيل المثال :

* فالمفسر : النحاس، أحمد بن إسماعيل المرادى (٣٣٨ هـ / ٩٥٠ م) يحدثنا عن قوما من المفسرين والفقهاء قد قالوا :" إن عمل الصور جائز "، وأنهم استدلوا بالآية التي جعلت من صنع التماثيل لنبي الله سليمان نعمة الله ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ ﴾ واستدلوا كذلك بصنع المسيح عيسى بن مريم – عليهما السلام – بأمر الله، لتماثيل الطير ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فعيسى قد صنع تماثيل للطير من الطين، وجاز ذلك عندما لم تكن شبهة وثنية تلحق بالعقائد بسبب هذه التماثيل

ويحدثنا المفسر الأندلسي : مكي بن حيموش (٣٥٥-٤٣٧هـ/٩٦٦-١٠٤٥م) فى كتابه (الهداية إلى بلوغ النهاية) وهو سبعون جزءا فى معاني القرآن وتفسيره – يحدثنا عن " أن فرقة تجوز التصوير " مستدلة بهذه الأدلة ذاتها [٤٥٦] .

والقرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصارى (٦٧١هـ/ ١٢٧٣م) يشير إلى اجتهاد فقهاء المذهب المالكي بجواز التماثيل عندما تقضيها ضرورات التربية، وذلك مثل تربية البنات، التي تستدعى تعويدهن على اللعب بالدمى – من " عرائس " وغيرها – فيقول : " .. وقد استثنى من هذا الباب – (باب الخلاف فى التحريم .. أي أن هذا المستثنى متفق على حله) – لعب البنات – لما ثبت عن عائشة أم المؤمنين أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها وهى بنت سبع سنين، وزفت إليه وهى بنت تسع، ولعبها معها .. قالت : كنت ألعب بالبنات – (أي اللعب

---

456 . الجامع لأحكام القرآن ج٤، ص٢٧٢ .

– الدمى – العرائس) – عند النبي، كان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله إذا دخل ينقمعن –(أي يتغيبن مختفيات وراء الستر) – منه، فيسربهن (يبعثهن) – إلي فيلعبن معي؟[٤٥٧]

فعائشة، أم المؤمنين، تلعب بعرائسها – وهى دمى وتماثيل لإحياء آدمية – مع صواحبها .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرى، ويرضي، بل يبعث لها بصواحبها يلاعبنها إذا هن اختبأن حياء منه ..

وفى (طبقات ابن سعد) ما يفيد تنوع هذه الدمى، فلقد كانت فيها دمى للخيل أيضا – وهى الأخرى صور أحياء – فعن عائشة، قالت : " دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما، وأنا ألعب بالبنات، فقال : ما هذا يا عائشة ؟ فقلت : خيل سليمان . فضحك "[٤٥٨] .

ثم يعقب القرطبي على هذه القضية، فيحكى أن العلماء قد أباحوا الدمى واللعب بها والدور الذي تقوم به فى التربية، وخاصة تربية البنات " حيث يتدربن على تربية أولادهن " منذ الصغر التي تنشأ بينهن وبين الدمى : العرائس والأطفال، فعندما تكون المنفعة _ مادية أو جمالية أو هما معا _ فإن الاجتهاد الإسلامي يزكى إباحة فنون التشكيل ...

بل إننا واجدون لدى مجتهد آخر من مجتهدي المذهب المالكي ما هو أكثر من إباحة الصور والتماثيل – التي تتطلبها مصالح الأمة العملية وتنمية معارفها العلمية وتربية حاستها الفنية وتهذيب طباعها وسلوكها – . واجدون لدى الفقيه الأصولي الإمام القرافى : أبو العباس أحمد بن إدريس (٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) الاشتغال بفن النحت والتصوير، وليس مجرد الإفتاء بإباحته فقط ! فلقد تحدث عن ممارسته لفن صناعة الدمى والتماثيل فقال في كتابه (شرح المحصول) : { ... بلغني أن الملك الكامل (٥٧٦ – ٦٣٥ هـ / ١١٨٠ – ١٢٣٨ م) وضع له شمعدان – وهو عمود طويل من النحاس له مراكز يوضع عليها الشمع للإنارة – كلما مضي من الليل ساعة انفتح الباب منه وخرج منه شخص يقف في خدمة الملك، فإذا انقضت عشر ساعات – (أي حان وقت الفجر) – طلع الشخص علي أعلى الشمعدان، وأصبعه في أذنه، وقال : صبح الله السلطان بالسعادة، فيعلم أن الفجر قد طلع }..

يحكي الإمام القرافي عن هذا الشمعدان الذي استخدمت فيه التماثيل – تماثيل الإنسان – آلة

---

457 . رواه مسلم والبخاري وابن ماجة .

458 . طبقات ابن سعد ج٨، ص٤٢، طبعة دار التحرير، القاهرة .

يقاس بها الزمن، وفيها الحركة والصوت معاً .. ثم يعقب فيتحدث عن تجربته هو في صنع شمعدان مماثل، به إلى جانب تمثال الإنسان، تمثال أسد، فيقول : " ... وعملت أنا هذا الشمعدان، وزدت فيه : أن الشمعة يتغير لونها في كل ساعة، وفيه أسد تتغير عيناه من السواد الشديد إلى البياض الشديد إلى الحمرة الشديدة، في كل ساعة لها لون، فإذا طلع شخص على أعلى الشمعدان، وأصبعه في أذنه، يشير إلى الأذان – غير أني عجزت عن صنعة الكلام " [٤٥٩].

فهنا .. فقيه مجتهد، أصولي بارز، يمارس صناعة الفن التشكيلي، فكان مَثَّالاً يصنع تماثيل الإنسان والحيوان، وفي صنعته هذه تتابع وتتعدد الألوان .. جمالاً ينفع الإنسان المنفعة المادية والجمالية كليهما .

وهكذا .. فإلى جانب الذين منعوا التصوير والنحت – في تراثنا الفقهي – كان هناك الذين أباحوا هذا الفن، بعد أن أمنت الأمة خطر الشرك وعبادة التماثيل والصور . بل كان هناك الفقهاء المجتهدون الذين مارسوا هذه الصناعة، فكانوا (فقهاء – مجتهدين – فنانين) .

وفى العصر الحديث :

عندما شرعت مدرسة التجديد والإحياء الديني تزيل عن الفكر الإسلامي غبار عصور الجموح والتراجع الحضاري – المملوكية العثمانية – وجدنا واحدا من أبرز مهندسي ذلك التجديد، وهو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ – ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩-١٩٠٥ م) يطرق هذا الباب، باجتهاده وتجديده، فيعلن مباركة الإسلام للفنون الجميلة، منبها على دور فنون التشكيل – رسما ونحتا وتصويرا – دورها النافع والضروري فى تسجيل الحياة وحفظها، وفى ترقية الأذواق والحواس، والاقتراب بالإنسان من صفات الكمال ..

ولقد عرض الأستاذ الإمام لهذه القضية – قضية دور " الفنون التشكيلية " فى حياة الأمة – أثناء سياحته فى جزيرة " صقلية " سنة ١٩٠٣ ففي " صقلية " زار المتاحف والمقابر ومواطن الآثار التي تحفظ وتحكى – بالصور والتماثيل آثار الغابرين، كأنهما من سجلات التاريخ .. كان يرسل إلى مجلة (المنار) فصولا يحكى فيها مشاهداته فى رحلته، وفى هذه الفصول كتب عن هذه الفنون، وعرض لرأى الإسلام فى الصور والتصوير والرسم وصناعة التماثيل ..

والذين يتأملون الصفحات التي كتبها الأستاذ الإمام حول هذه القضية، يطالعهم الشيخ ذواقة

---

459 . مقدمة تحقيق (الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام) ص١٥ .

للفن، عاشقا للإبداع الفني، مبصرا الخيوط التي تربطه بفنون العرب المألوفة لعامة الناس، الأمر الذي يضيف إلى تجديده فى الدين والآداب واللغة وأساليب الإنشاء قسمة أخرى تجعل له فضلا لا ينكر فى السعي لتجديد حياة الأمة بمختلف سبل التجديد، ومنها الفنون .. فهو يتحدث – فى شاعرية راقية – عن الرسم كفن يضاهى الشعر – الذي هو ديوان الأمة العربية منذ القديم – غير " أن الرسم : شعر ساكت، يرى ولا يسمع، كما أن الشعر : رسم يسمع ولا يرى .

ثم يعرض للحديث عن منافع هذه الفنون ودورها فى حفظ تراث الأمة، وما يعنيه ذلك من حفظ للعلم والحقيقة والتاريخ، كي تظل شاهدة فاعلة لمن يأتي من أجيال " فحفظ الآثار – الرسوم والتماثيل – هو حفظ للعلم والحقيقة، وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها ...

ثم يأتي الأستاذ الإمام إلى القضية الشائكة والخلافية .. قضية موقف الإسلام من هذه الفنون وأصحابها، فيدلى بالقول الفصل فى فائدتها – ومن ثم حلها – وذلك لتغير الملابسات والمقاصد التي دعت إلى نفور المسلمين منها فى عصر البعثة النبوية، يوم كانت الرسوم والصور والتماثيل إنما تتخذ كي تعبد من دون الله، أو على الأقل كانت مظنة شبهة لتعظيمها دينيا، فكان أن نهى عنها الرسول صلى الله عليه وسلم أما الآن، وبعد زوال الخطر بالكلية، وبعد أن لم تعد الرسوم والتماثيل مظنة شبهة العبادة أو التعظيم الديني، وبعد أن وضحت وتأكدت منافعها فى ترقية أذواق الأمة، حفظ حقائق تاريخها وعلومها، فإن رضاء الإسلام ومباركته لها أمر لا شك فيه .. والأستاذ الإمام عندما صاغ اجتهاده هذا وسطر لنا تجديده فى هذا الميدان، كان يوجه حديثه إلى الناس عبر الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ – ١٣٥٤ هـ / ١٨٦٥ – ١٩٣٥ م) صاحب مجلة (المنار) .. وكانت (المنار) تنشر هذه الفصول التي يصف فيها مشاهد سياحته دون توقيع . كان يتولى يومئذ منصب " مفتى الديار المصرية " ويتربع على عرش الإمامة والاجتهاد فى طول بلاد العالم الإسلامي وعرضها ..

وفى هذه الفصول أخذ الشيخ محمد عبده يتحدث إلى الشيخ رشيد رضا عن هذه القضية، فقال – بعد وصفه لما شاهد من الرسوم والتماثيل فى متاحف " صقلية " وأديرتها وكنائسها ومقابرها وميادين مدنها، وبعد حديثه عن دور هذه الرسوم والصور والتماثيل فى " حفظ العلم " وتخليده " ... قال " وربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام، وهى ما حكم هذه الصور فى الشريعة الإسلامية، إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية، وأوضاعهم الجسمانية ؟ هل هذا حرام ؟ أو مكروه ؟ أو مندوب ؟ أو واجب ؟ .. فأقول لك :

إن الراسم قد رسم، والفائدة محققة لا نزاع فيها، ومعنى العبادة وتعظيم التماثيل أو الصورة قد محى من الأذهان، فإما أن تفهم الحكم من نفسك، بعد ظهور الواقعة، وإما أن ترفع سؤالا إلى " المفتى "، وهو يجيبك مشافهة – (لاحظ أن المفتى هو المتكلم . وهذا جوابه ؟!) .. فإذا أوردت عليه :" إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون "، أو ما فى معناه مما ورد فى الصحيح، فالذي يغلب على ظني أنه سيقول لك : إن الحديث جاء فى أيام الوثنية، وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسببين، الأول : اللهو . الثاني : التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين . والأول مما يبغضه الدين، والثاني مما جاء الإسلام لمحوه، والمصور فى الحالين شاغل عن الله، أو ممهد للإشراك به، فإذا زال هذان العارضان، وقصدت الفائدة، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات، وقد صنع ذلك فى حواشي المصاحف، وأوائل السور، ولم يمنعه أحد من العلماء، مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضوع التراع، أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه، على الوجه الذي ذكر.

أما إذا أردت أن ترتكب بعض السيئات فى محل فيه صور، طمعا فى أن الملكين الكاتبين، أو كاتب السيئات على الأقل لا يدخل محلا فيه صور، كما ورد، فإياك أن تظن أن ذاك ينجيك من إحصاء ما تفعل، فإن الله رقيب عليك وناظر إليك حتى فى البيت الذي فيه صور، ولا أظن أن الملك يتأخر عن مرافقك إذا تعمدت دخول البيت الذي فيه صور .

ولا يمكنك أن تجيب المفتى : بأن الصورة – على كل حال – مظنة العبادة، فإني أظن أنه يقول لك : عن لسانك – أيضا – مظنة الكذب، فهل يجب ربطة ؟!، مع أنه يجوز أن يصدق، كما يجوز أن يكذب ؟..

وبالجملة، فإنه يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين، لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل، ليس هناك ما يمنع المسلمين من الجمع بين عقيدة التوحيد ورسم صور الإنسان والحيوان لتحقيق المعاني العملية وتمثيل الصور الذهنية ..."

هكذا صاغ الأستاذ الإمام – فى الفنون التشكيلية – ما يشبه الفتوى الشرعية، فقرر أنها أداة لحفظ الحقيقة العلمية والتاريخية، بل " وسيلة من أفضل وسائل العلم " وأنها فنون راقية، ترتقي بذوق الإنسان، كما يرتقى به فن الشعر، وغيره من الفنون التي ليس على الإبداع فيها كلام ولا ملام فى الإسلام ..

وهو بذلك قد كتب صفحة فى كتاب التجديد الإسلامي .. تجديد حياة الأمة بتجديد الفكر الذي يحكم هذه الحياة ..

وبعد ....

فهل هناك شك – الآن، وبعد هذا الذي سقناه عن موقف المنهج الإسلامي من آيات الجمال فى الإبداع الإلهي، ومن ثم من الفنون الجميلة، التي ترتقي بالذوق والحس الإنساني ليدرك آيات الجمال هذه، فيرتقى على سلم الشكر لصانع هذا الجمال .. هل هناك شك – بعد هذا الذي قدمناه – فى أن موقف المنهج الإسلامي من هذه الفنون الجميلة من تذوقها، وممارستها – هو موقف الود والتعاطف، والتزكية والمباركة ؟ .. وذلك على الرغم من شيوع مواقف ومقولات المخاصمة المفتعلة بين الإسلام وبين هذه الفنون ؟ ..

إن الإسلام لا يخاصم الجمال، ولا يعادى فنونه . والمسلم الأمثل لا يمكن أن يكون ذلك المتجهم الذي ينزع

عن جماليات الحياة " مباركة الإسلام " فقط هناك المعايير الإسلامية – الاعتقادية والأخلاقية – التي يجب أن تحكم موقف المسلم تجاه هذه الفنون، حتى تظل مصدرا حقيقيا للخير والجمال فى حياة الإنسان..

• فالاقتصاد والاعتدال فى الاشتغال بهذه الفنون، وفى ترويجها مطلب إسلامي، وذلك حتى لا يختل توازن اهتمامات الأمة بمختلف نواحي وميادين النشاط اللازم لتكامل وتنمية طاقات وملكات وحياة الإنسان، وإن الاقتصاد والاعتدال – الذي ينفى وينكر طرفي الغلو – هو ميدان الإسلام ومعياره فى كل ميادين النشاط الإنساني .. فالقرآن يأمرنا به ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [460] .. ﴿ وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [461].. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكد هذا البلاغ القرآني فى بيانه النبوي فيقول :" كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا، ما لم يخالطه إسراف أو مخيلة " .. ويتحدث إلى من غالى فى العبادة والنسك، فصام النهار وقام الليل مهملا زوجه ودنياه، فيقول : " .. إني أصوم وأفطر، وأصلى وأنام، وأمس

460 . سورة الأعراف آية رقم ٣١ .

461 . سورة القصص آية رقم ٧٧ .

النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني " [٤٦٢].. و" وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزورك – (أي زائريك) – عليك حقا، ولجسدك عليك حقا .." [٤٦٣]

* إن انفعال النفس الإنسانية بجماليات الحياة هو فطرة فطر الله الإنسانية السوية عليها والإسلام يريد لكل الفنون – حتى تكون بحق جزءاً من جماليات هذه الحياة – أن لا تعاند الفطرة الإنسانية، بل أن تكون عونا على ترقيتها وتهذيبها يريدها سبلا لتهذيب النفس والارتقاء بملكات وطاقات وغرائز الإنسان .. ولا يريدها عوامل تحلل وانحلال ومعاول هدم وإثارة لغرائز العنف والغضب والشهوة واللذة المادية فى الإنسان يريدها فنونا جميلة ومتجملة بأخلاقيات الإسلام ...

* وإذا كان لكل شعب من الشعوب فنونه الموروثة، والتي غدت وتغدو سمة من سمات تميزه القومي عن الشعوب الأخرى، فإننا نريد للفنون الموروثة لشعوب الأمة الإسلامية وقومياتها أن تخضع لما خضعت له المواريث الفكرية لهذه الشعوب عندما دخلت دين الإسلام – واندمجت فى أمة الإسلام .. نريد لهذه الفنون أن " تحيا " وأن " تتطور " وفقا لمعايير الإسلام فى الاعتقاد .. وفى الذوق الجمالي .. وفى الأخلاقيات ولا نريدها أن تكون " تقليدا " لفنون حضارات أخرى، لا تتخلق بأخلاق حضارة الإسلام .. ولا أن تكون " مسخا مشوها " لفنون تلك الحضارات".

* وإذا كانت المهمة الأولى للفنون الجميلة فى حياة الإنسان هي الارتقاء بروحه على درب الإدراك والاستماع بآيات الجمال الإلهي فى هذا الكون فإن الإسلام يتقدم على هذا الدرب خطوات أبعد، ليجعل من هذه الفنون سبيلا من سبل التي تصوغ " الإنسان – الرباني " الذي يدرك معنى أن الله " جميل " وأن " ربانية " الإنسان رهن بشوقه وتعلقه وسعيه على درب التخلق بالأخلاقيات الجميلة، درب الوعي بالجمال الإلهي المبثوث فى هذا الوجود .. وأيضا الاستماع بلذات هذا الجمال .

ومع هذه المهمة الإسلامية للتربية الجمالية، وللفنون الجميلة فى حياة الإنسان المسلم، فإن للمنهج الإسلامي رسالة يطلب من هذه الفنون أن تنهض بدورها فى أدائها ... رسالة الإسهام فى حفظ الفكر ونشر الدعوة بواسطة هذه الفنون ...

إنها سلاح فعال فى البلاغ إلى الناس .. ومن الممكن – بل الواجب – أن تكون – كفنون

---

462 . رواه البخاري .

463 . رواه البخاري .

القول – أداة للبلاغ المبين برسالة الإسلام ..

* وبالإضافة لكل ما تقدم يجب التنويه إلى نقطة هامة جداً وهى أنه ليس معنى تأييد الفن أن يكون هناك تأييد من بعيد أو من قريب لشكل الفن الذي يعرض الآن فالابتذال والإسفاف اللذان يخيمان على الفن الحالي لا يمكن تصوره أنه فن من الأصل فهو يعتبر وسيلة رخيصة لإثارة الغرائز المادية والجنسية لدى الإنسان ووسيلة لموت الإنسان الرباني كما أنه يقوم بدور فعال وراء ارتفاع معدل الجريمة في المجتمع وأيضا ارتفاع السلوك العدواني لدى الأطفال خصيصا، مما يؤدى في النهاية حتماً إلى الإخلال بقواعد الحقوق والالتزامات للإنسان فنجده مختل نفسياً وغير متوازن نتيجة الفن المدعم بالسموم الجنسية وإثارة الغرائز المكبوتة سواء العنف أو اللذة المادية في الإنسان .

لذلك فإن الأغنية المبتذلة أو التمثيل المسف _ سواء سينما أو مسرح أو تليفزيون _ كل هذا مرفوض بأي شكل من الأشكال .